التقرير اليومي

٢٠٠٧/٩/٧

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

الصواريخ الأمريكية وجيوبوليتيك أوروبا الشرقية

بقلم و. أليخاندرو سانشيز؛ مركز دراسات موازين القوى؛ ٢٠٠٧/٨/٢٩

زارت USS Forest Sherman، وهي مدمرة صواريخ موجهة تابعة للأسطول السادس، مرفأ "فارنا" البلغاري في أوائل آب ونفذت تدريبات بحرية مشتركة مع البحرية البلغارية. هذا الحدث يمكن أن يُعتبر روتينياً وطبيعياً، إلا أنّ الإعلان عن إنتشار للجيش الأميركي في عدد من المواقع العسكرية البلغارية (وكذلك الرومانية) رفع الهواجس في بلدين مهيمنين تقليديَيْن في منطقة البحر الأسود هما روسيا وتركيا.

لذلك، فإنّ العلاقات الأمنية المتطورة بين واشنطن وصوفيا تضيف بعداً جديداً للزيارة الروتينية للمدمرة الأميركية، حيث أنها تشير الى "وصول" الولايات المتّحدة الى البحر الأسود.

التحالف الأميركي- البلغاري؟

خلال الحرب الباردة، كانت بلغاريا تعتبر، والى حد واسع، بمثابة القمر الصناعي القوي والثابت لموسكو بظل قيادة ثيودور شيفكوف. وبعد ١٥ عاماً، بعد سقوط الإتحاد السوفياتي، تسير بلغاريا في طريقها للإنضمام الى الغرب من خلال حلف الناتو وعضوية الإتحاد الأوروبي (على الرغم أنّ ذلك أتى متأخراً جداً عن دول أخرى في حلف وارسو السابق).

وفي ٢٨ نيسان ٢٠٠٦، وقّع وزير الخارجية البلغاري إيفايلو كالفن ووزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس إتفاقية تعاون دفاعي، وهي إتفاقية لمدة ١٠ سنوات تسمح بموضعة ما قد يصل الى ٢٥٠٠ جندي أميركي في بلغاريا. فالجنود الأميركيون سيتمركزون في ٤ قواعد بلغارية هي: منطقة تدريب Novo Selo، قاعدة Bezmer الجوية، وقاعدة Graf Ignatievo الجوية. وقد أوضحت السفارة الأميركية في بلغاريا بأنه لن يكون هناك "قواعد عسكرية أميركية" في بلغاريا، وبأنّ هناك، وسيبقى، قواعد بلغارية تحت العلم البلغاري وتحت القيادة البلغارية التي سيتقاسمها معها الجنود الأميركيون لأغراض تدريبية.

ولا يستحسن جميع البلغاريين فكرة وجود جنود أميركيين على أراضيهم. وقد صرح فولين سيديروف، قائد حزب "آتاكا" الوطني، بأنّ "القواعد الأميركية ستجعل بلغاريا هدفاً للإرهابيين"، كما أظهر أمين عام حلف الناتو ياب دو هوب شيفر شكوكه بشأن القواعد الأميركية. إذ صرّح، عند حديثه مع الإذاعة الوطنية البلغارية، بأنّ "الإتفاق حول تأسيس قواعد عسكرية أميركية على الأراضي البلغارية هو إتفاق ثنائي بين بلغاريا والولايات المتّحدة. ولا يمكنني أن أرى كيف بإمكان الناتو أن يستفيد من هذه القواعد في الوقت الحاضر... في هذه المرحلة، أنا لا أتصور الناتو مستفيداً من هذه المواقع العسكرية".

بالإضافة الى ذلك، أعلنت وزارة الخارجية الأميركية في العام الماضي بأنّ الولايات المتّحدة وبلغاريا وقعتا إتفاقية لدعم مشاريع مشتركة تتعلق بفرض القانون في بلغاريا. وفي حزيران ذاك العام، سافر أعضاء من "الفايتر وينغ" 173rd التابعة للحرس الوطني في قاعدة أوريغون الجوية الى بلغاريا لإجراء تدريبات جو– جو مع وحدات محلية في قاعدة Graf Ignatievo الجوية.

ما هي أهمية بلغاريا؟

إنّ حجم الجيش البلغاري ليس السبب وراء إهتمام واشنطن بأن تصبح صديقة لتلك الدولة السلافية. فجغرافياً، توفر بلغاريا للولايات المتّحدة (والناتو) وجوداً أكبر في البحر الأسود، الذي يوجد هناك خطط لإنشاء أنابيب نفط وغاز تمر من خلاله. كما أنها قريبة من يوغوسلافيا السابقة، وهي مكان لتوترات مستمرة، تحديداً في العقد الأخير. أما الأهم، فهو قربها من منطقة البلقان التي تعتبر منطقة ترانزيت للمواد المخدرة غير المشروعة الى داخل أوروبا. بالإضافة الى ذلك، تعتبر بلغاريا قريبة نسبياً من بلدان القوقاز، مثل جورجيا، التي هي أهم صديق للولايات المتّحدة على الإطلاق.

وتسمح القواعد للولايات المتّحدة بالمحافظة على سيطرة متزايدة على البلد وعلى منطقة الشرق الأوسط الكبير، بما أنّ لدى واشنطن الآن وجوداً عسكرياً في الجنوب (الأسطول الخامس الأميركي المتمركز في البحرين)، وسيكون لديها وجود في الشمال من خلال بلغاريا القريبة. أما السبب الآخر وراء الصداقة مع بلغاريا، فله علاقة بسيناريو "ماذا لو"، وتحديداً ماذا كان سيكون عليه مستقبل بلغاريا لو أنها لم تنضم الى المنظمات الأوروبية الغربية؟ لنضع الأمر ببساطة وبرودة، لو أنّ بروكسل لم تقبل ببلغاريا كعضو في حلف الناتو، فقدكان يمكن أن تسقط (بلغاريا)في نطاق نفوذ بلد آخر، تحديداً روسيا.

ففي السنوات الأخيرة، تحركت بلدان في آسيا الوسطى، مثل أوزبكستان، ببطء، بإتجاه الحصول على حماية موسكو مرة أخرى، وذلك بعد غزل قصير مع الغرب. وفي حالة أوزبكستان، فإنّ ما حفزها على ذلك كانت الإدانة التي تلقاها إسلام كاريموف بسبب مجزرة أنديجان التي حصلت في أيار ٢٠٠٥. أما البلدان الأخرى، مثل بيلاروسيا، فلا تزال تعتبر موسكو بمثابة حليفها الطبيعي. فلو أنه لم يتم قبول بلغاريا في الناتو في العام ٢٠٠٤، فإنّ السيناريو المحتمل هو أنها كانت ستسبح عائدة الى روسيا لتكون حليفتها الموثوق بها في جنوب شرق أوروبا ، الأمر الذي كان سيجعل هذا البلد، بدوره، بمثابة قضية أمنية بالنسبة للغرب.

أما روسيا فتعمل مرة أخرى، بفضل مواردها المالية الغنية، بالدفع بإتجاه سياسة خارجية هجومية بواسطة البحث عن حلفاء محتملين لها على إمتداد العالم. فإجتماع القمة الأخير "لمنظمة تعاون شانغهاي" هو أحد الأمثلة عن هذه التطورات الجديدة. وعندما يتعلق الأمر بأوروبا الشرقية والقوقاز، فإنه لن يكون مفاجئاً لو أنّ موسكو حاولت تعزيز ودعم موقعها عن طريق تعزيز كومنولث الدول المستقلة (C.I.S). وفي سيناريو إفتراضي، فإن روسيا ربما كانت لتذهب بعيداً في دفعها كدعوة بلغاريا للإنضمام إلى دول الكومنولثالمستقلة لو أنّ صوفيا لم تنضم الى حلف الناتو وجيوبوليتيكيا الإتحاد الأوروبي و صنع تحالفات مع دول قوية، الأمر الذي يعتبر هاماً بالنسبة لبلدان صغيرة مثل بلغاريا تحديداً.

كيف تؤثر حماسة بلغاريا على جيوبوليتيكيا الشرق الأوسط والبلقان

إنّ صداقة بلغاريا مع الولايات المتّحدة يجب أن توضَع في السياق الذي يشير الى الكيفية التي أثرت بها على توازن القوى والمصالح الوطنية بين دول إقليمية أخرى. فعلاقة صوفيا– واشنطن الوثيقة تأتي في زمن يجري فيه تغيير كبير في روسيا الفيدرالية، حيث تمكنت عائدات النفط والغاز، المتحدة مع قيادة فلاديمير بوتين القوية والقاسية، من وضع روسيا على المسار (بالمقارنة مع فترة التسعينات المضطربة). إذ أنّ بوتين بدأ ينظر الى سياسته الخارجية وجيشه من منظور نشر مصالح روسيا في الخارج وإعادة تأسيس وتثبيت مناطق ومجالات نفوذ روسيا التقليدية.

ومؤخراً، ناقش عدد من المسؤولين العسكريين الروس إرجاع البحرية الروسية مجدداً الى البحر المتوسط، الأمر الذي يعني وجوداً نشطاً وقوياً في البحر الأسود، بعد فترة من العجز والتقصير. "فالبحر المتوسط يعتبر مسرحاً هاماً للعمليات بالنسبة للأسطول الروسي في البحر الأسود"، قال الأدميرال الروسي فلاديمير ماسورين. كما أشار أيضاً الى أنّ منطقة سيطرة الأسطول قد إمتدت من خلال البحر الأسود والبحر المتوسط بإتجاه المحيط الأطلسي. "علينا إستعادة الوجود الدائم للبحرية الروسية في هذه المنطقة"، أضاف قائلاً. إذن، روسيا تريد، وهذا مفهوم، إبقاء الجيش الأميركي بعيداً عن منطقة البحر الأسود والمحافظة على الوضع القائم هناك، الذي من خلاله تتقاسم النفوذ حول المنطقة مع تركيا.

وعلى الرغم أنّ تركيا عضو في حلف الناتو، فهي، أيضاً، تريد إبقاء واشنطن بعيدة عنها. إذ تعتبر تركيا نفسها قوة إقليمية في البحرين الأسود والمتوسط، ولا تريد أن تفقد نفوذها فيهما. كما أنّ من المبكر جداً القول ما إذا كان سيكون هناك أية إرتدادات بخصوص علاقة واشنطن مع أنقرة عندما تأتي الولايات المتّحدة بجنودها ونفوذها الى بلغاريا والبحر الأسود.

أما النتيجة المحتملة، ولو أنها غير مرجحة، لكنها مع ذلك سيناريو يستحق الدرس، فهو أنّ تركيا قد تتحول، بسبب شعورها بخطر تهديد نفوذها التقليدي وبسبب عدم وجود إشارات إيجابية حول إنضمامها الى الإتحاد الأوروبي في المستقبل القريب، لأن تصبح صديقةً لبلدان أخرى، روسيا بشكل رئيسي. وقد يحتج المسؤولون الأتراك والروس بالقول حتى، بأنّ وجوداً أميركياً ما في البحر الأسود هو أمر غير ضروري، بما أنّ هناك أصلاً مبادرة إقليمية تدعو الى إبقاء البحر الأسود منطقة آمنة، تحديداً مبادرة "BLACK SEAFOR". وقد إنطلقت هذه المبادرة في ٢ نيسان ٢٠٠١ بين تركيا الى جانب روسيا، جورجيا، بلغاريا، رومانيا وأوكرانيا لتعزيز السلام والإستقرار في منطقة البحر الأسود، ولدعم أنشطة التعاون الإقليمي الجيد والعمل على تطوير علاقات جيدة مع الدول المتجاورة فيما بينها.

وفي ٦ آب، تسلمت القوات البحرية التركية قيادة الـ BLACK SEAFOR من القوات البحرية الروسية بإحتفال جرى في القاعدة البحرية Golcuk. وبشكل مثير للسخرية، حدث هذا الأمر بالتوازي تقريباً مع إرساء المدمرة USS Forest Sherman في بلغاريا.

وبطريقة مماثلة، ومع كونها بدأت تصبح قريبة جداً من الولايات المتّحدة، فقد تكون بلغاريا تخاطر بروابطها التاريخية مع بلدان أخرى وبصداقاتها المحتملة مع حلفاء جدد. فعلى إمتداد التسعينات، ففي الجزء الأول من هذا العقد، كانت بلغاريا، وتشبه بذلك رومانيا كثيراً، منقسمة بين أن تكون صديقةً للولايات المتّحدة و"أوروبا القديمة" (تحديداً قوى مثل فرنسا، ألمانيا، وبريطانيا)، وبين المحافظة على العلاقات التاريخية مع كل من روسيا والعالم العربي. فأن تكون صديقةً لواشنطن، فإن ذلك يمكن أن يضع هذه العلاقات(التاريخية)، على الأرجح جداً، موضع رهان ويعرّض المصالح التجارية، الإستثمار الخارجي والعلاقات السياسية المستقبلية للخطر.

وضع بلغاريا في صورة جديدة

تشبه العلاقات الدولية، من جوانب عديدة، لعبة شطرنج جيو– سياسية، حيث على الحكومات أن تفكر بعواقب كل حركة تقوم بها. فخلال الحقبة السوفياتية، كانت بلغاريا حليف موسكو الموثوق في جنوب شرق أوروبا، الى حد أن واشنطن بالكاد قامت بمحاولات لتحسين علاقاتها مع هذا البلد. بالواقع، إنّ قرار ثيودور سيفكوف بالبقاء حليفاً لموسكو كان يعني أنّ بإمكانه البقاء في السلطة الى ما لا نهاية، وربما أدرك بأنّ محاولة الإنفصال عن موسكو السوفياتية سيكون ثمنه تسريحه من الحكم. وبذلك، فقد قرر الإبقاء على تحالفه مع الدولة الشيوعية. أما اليوم، فقد قرر صناع السياسية في صوفيا بأنّ "الغرب"، بما يعني الدخول في عضوية المنظمات مثل الناتو والإتحاد الأوروبي وصداقة واشنطن، هو من مصلحة بلغاريا الفضلى.

أما بالنسبة لموقع بلغاريا الجيوبوليتيكي الفريد، فسيكون على صناع السياسة في صوفيا أن يوازنوا بحذر بين من يريدون مصادقته في المستقبل، تحديداً العلاقات مع دول الناتو– الأوروبية ومع الولايات المتّحدة. فكل حكومة من هذه الحكومات لها مصالحها الخاصة، ومن المهم بالنسبة لصوفيا أن تتذكر بأنّ ما يسر واشنطن ليس هو بالضرورة ما يفرح القادة في بروكسل وأوروبا. بالإضافة الى ذلك، لا يجب على بلغاريا نسيان روابطها التاريخية مع البلدان المحيطة بالبلقان، العالم العربي وروسيا.

أما أن تصبح بلغاريا هدفاً للإرهابيين بسبب قبولها لوجود الجنود الأميركيين على أراضيها فإن ذلك أمر غير مرجح، لكن من المؤكد أنّ الكرملين سيُبقي عينه على التطورات الجارية في هذا البلد لسنوات عديدة مقبلة. فصوفيا بحاجة لأن تتذكر دوماً بأنّ إهتمام واشنطن الرئيس في بلغاريا هو بسبب موقع البلد الجغرافي على البحر الأسود، تماماً كإهتمام موسكو من قبل.

Research Services Group
www.ipileb.com